فتاوى شرعية

معضلات العصر

للأستاذ الجليل محمد بن الحسن الحجوى

وزير معارف الحكومة المغربية

تتمة

نص الجواب عن الأسئلة الأسفودرية

جواب السؤال الثاني :

إن الذي يأخذ مرتباً كبيراً من دولة أجنبية سواء الذي في بلاده أو في بلاد مجاورة إن كان يتقاضى ذلك في مقابلة عمل يضر بأحد كالجوسسة أو الوسوسة أو خدمة مؤامرة أو إيقاد فتنة أو أي ضرر آخر بفرد أو بالأمة ، فالمرتب حرام وسحت ، والفعل المذكور مذموم وخيانة عظمى، والجاسوس ملعون ومعلوم حكمه من كتب الفقهاء فلا نطيل عليكم به . ومن أحكامه إباحة دمه حسب نظر الامام وكما تقتضيه المصلحة، ما لم يؤد ذلك إلى فتنة أعظم فللامام النظر فيه. وبالجملة إن السؤال عن المرتب وهو سحت وحرام فان لم يكن في مقابلة ذلك بل كان لأمر اقتصادي أو مرتباً عمريًّا في خدمة مشروعة أو نحو ذلك مما لا ضرر فيه على أحد فلا شيء فيه

جواب السؤال الثالث :

... في الطرق الصوفية التيجانية أو غيرها ...

إن هذا السؤال كان سألني عنه شيخ الاسلام المقدس المبرور سيدي أحمد بيرم التونسي بذاته وكنت أجبته مشافهة بمحضر جمع من علماء تونس والجزائر ومنهم العلامة صفينا سيدي الحاج احمد سكيرج ، أحد عظماء الطريقة التيجانية الأعلام

وهأنذا أكتب لكم ملخص الجواب الذي أجبته به بمحضرهم بمعناه : إن الطرق الصوفية تجانية أو غيرها ، إنما حدثت في الاسلام لجمع قلوب المسلمين على إقامة الشريعة الغراء إقامة كاملة كافلة تطهير النفوس من الأخلاق الذميمة ، وتحليتها بحلية مكارم الأخلاق ضمن دائرة العمل بالكتاب والسنة والمحافظة على أنفاس العمر ألا تضيع في سفساف الأعمال ، مع التراحم والتواد بين عموم المسلمين كما أشرت لهذا في كتابي « الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي » في الربع الثالث منه عند الكلام على تاريخ علم التصوف ، وقد بسطته أتم بسط في كتابي « برهان الحق في الفرق بين الخالق والخلق » حيث تكلمت على كثير من الطرق ومنها الوهابية

فكل طريقة وجدناها تخدم الاسلام بإخلاص سائرة على هذا المبدأ سيراً مستقيما فأنعم بها وأكرم ؛ وكل طريقة حادت عن هذا المبدأ نبذناها نبذ المستقذرات وتبرأنا من عملها تبرؤ إبراهيم من أبيه . إن سيدي الوالد المقدس كان من أتباع الشيخ التجاني — رحم الله الجميع — وكان يؤكد لي أن الشيخ كان يقول لأصحابه: زنوا كلامي بميزان الكتاب والسنة، فما وافقهما فخذوه، وما خالف فانبذوه . فنحن نعمل بوصية الشيخ ونزن ما ينسبه إليه بعض الجهلة من أصحابه الذين لا يفرقون بين النبي والولي ولا بين الخالق والمخلوق — بميزان الشريعة ، ثم نفعل ما أمرنا به قدس الله روحه

وعلى هذا فالقولة التي شاعت وذكرها بعض المؤلفين منهم ونسبها للشيخ وذكر أنه وجدها بخطه وهي : أن صلاة[1] الفاتح لما أغلق تعدل ستين سُلكة من القرآن أو ثمانين . ثم جاء بعض المؤلفين منهم فزاد صفراً وقال ستمائة ، ثم جاء محشيه وزاد صفراً ثانياً وقال ستة آلاف سلكة

نقول إنا عرضناها على الكتاب والسنة فلم نجد إلا ما يردها وينبذها لأنها تقتضي كناية وهي أبلغ من التصريح أنها أفضل من الصلاة الابراهيمية التي صحت بها الأحاديث بل ومن القرآن أيضاً وأن كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق (ولذكر الله أكبر) —

دعنى من فرية أنها من الكلام القديم فمثل هذا لا ينطلي حتى على المغفلين ولا يلتفت إليه المؤمنون بالله الذين يعلمون أن

(١) إن صلاة الفاتح ليست من إنشاء الشيخ التجاني ولا نزلت عليه من السماء ولا لقنها له النبي صلى الله عليه وسلم يقظة كما يفترون ، بل هي للشيخ البكري كما يقوله علماؤهم الأثبات . ولم يدع البكري ولا أصحابه نزولها عليه ولا أنها من كلام الله القديم ولو أنه ادعاه لكفروه لأن النبوة والوحي قد ختما بمحمد صلى الله عليه وسلم

الوحى انقطع بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن إلهامات المتصوفة والمرائى المنامية لا قيمة لها فى الحجية عند كافة أهل العلم والدين المعتد بهم؛ والثواب على الأعمال ومقداره عند الله لا يدرك إلا بطريق الوحى الحقيق ولسان النبوة الناطق ؛ خلافاً للمعتزلة القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين؛ وأن العقل يستقل بمثل هذا

ومن المكر الخفي والكيد للاسلام المنطوى تحت هذه المقالة تزهيد الناس فى القرآن العظيم وفى تلاوته ثم الاعراض عنه إلى ما هو أخف عملاً وفي الميزان أثقل فى زعمهم الباطل

وإنى لأعجب لمسلم استنار قلبه بنور القرآن يقبل هذه المقالة الشنعاء فى الاسلام فلا حول ولا قوة إلا بالله

لذلك إذا أحسنا الظن بالشيخ — كما هو شأن المسلمين مع سلفهم الصالح — واعتقدنا فيه الكمال ، فلنكذب نسبتها للشيخ ونسترح ، فإن الاشتغال بتأويل كلام غير المعصوم من العبث وتضييع الوقت . ثم لأن سند نسبة المقالة للشيخ واه من أصله لضعف سند الوجادة إن صدقنا من قال إن الخط خط الشيخ . وقد جرب المحدثون التغفل على كثير من البادو والمتصوفة، لذلك ضعفوا رواية كثير منهم كما هو مقرر فى فن المصطلح . كما أننا جربنا الكذب والبهتان والتغفل والدله على كثير من الأتباع لما يحملهم عليه التعصب الطرقى والتحزب المذهبي وحب انتشار الطريق ، لأن ذلك من أساليب الارتزاق ، واستغلال استبلاه المغفلين الجاهلين ، يحببون إليهم الطريق بتكثير ثواب الأعمال وطرح المشاق وسهولة الوصول وتخفيف المسؤوليات أمام الله . فيقولون للمريد : من عمل فى طريقنا قليلاً كان له أكثر من الأجر الذى يكون لغيرنا بأضعاف. فاذا كان لمطلق المسلم ليلة قدر واحدة فى السنة فالتجانى كل لياليه ليلة القدر . وإذا كان لغيرنا على الحسنة عشر حسنات فلنا آلاف الحسنات ؛ وإذا كان غيرنا عليه حساب ومسؤولية أمام الله ثم عقاب ، فنحن ندخل الجنة بغير حساب . نحن لنا سيدى أحمد التجانى ضامن وهم لا ضامن لهم ؛ وكل تجانى يحضر سيدي أحمد لقبض روحه. إلى غير هذا مما هو معلوم لدى كل من خالطهم ، فيصورون له الطريق التجانية بأجل صورة يتصورها الوهم . فكأنها ورقة حماية من دولة لها سلطة عالية ، تعلى من يجير ولا يجار عليه ، فكأنهم نسوا القرآن

فبهذا صارت الطريقة التجانية فى نظر أهل العلم بالسنة والكتاب كأنها مسجد الضرار ضد الاسلام

فالله يقول فى نبيه خاتم النبيين ، وهم يقولون فى الشيخ التجانى هو الختم ، وهو لبنة التمام للأولياء ، فجروا على الله ملكه وقطعوا المدد المحمدى وهم لا يبالون أو لا يشعرون، وحتى إن شعروا فالمقصد يبرر الواسطة؛ وإذا سمعوا أن النبي أفضل النبيين قالوا إن التجانى رجله على رقبة كل ولى لله بهذه العبارة الجافة من كل أدب والجارحة لعواطف كل مسلم ، لأن الولى فى عرفهم يشمل النبي، إذ يقولون إن ولاية النبي أفضل من نبوته، ولا يبالون أن يكون أصحابهم أفضل من أبي بكر وعمر والعشرة المبشرين بالجنة الذين كانوا يخافون الحساب ولا يأمنون العقاب ؛ ولم يكن عندهم بشارة النجاة منهما . إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون

حكى لى بعض القضاة قال : كان فى محكمتى تسعون عدلاً فى البادية . وقد تقصيت أخبار الصالح والطالح منهم لأعلم مقدار ثقتى بهم فى حقوق المسلمين فوجدت عشرين منهم متساهلين لا يؤتمنون على الحقوق؛ وحين دققت النظر فى السبب تبين لى أنهم جميعاً تجانيون ، فبقيت متحيراً حتى انكشف لى أن السبب هو اتكالهم على أنه لا حساب ولا عقاب يترصدهم فانتزع الخوف من صدورهم . كل هذا سببه الفساد الذى أدخله جهال الطريق عليها فأفسدوها وانعكس المقصود من الطرق التى كان يقصد منها ردع الخلق عن المعاصى والتوبة منها وزيادة خوف الله فصارت إلى أمن مكر الله، وإزالة مخاوف الآخرة من عقولهم فلا يبقى فى قلوبهم ذرة من خوف الله وإنما تمتلئ بتعظيم شيخهم حتى تتراءى لهم عظمته فوق عظمة الله ورسوله

ومعتقدى فى الطريق التجانية الحقيقية نزاهتها عن هذه المذيانات وهذه الاباحة المقنعة إذ كان فيها فحول الدين وأساطين العلم ، مثل أشياخنا : مولاى عبد الملك العلوى الضرير سيدى محرب النهاى الوزانى، سيدى الوالد المقدس، سيدى الحاج محمد بن محرب عبد السلام كنون ، سيدى أحمد بن أحمد بنانى ... ومن قبلهم كسيدى ابراهيم الرياحى التونسى ومن قبله ، ومن بعدهم ممن هم موجودون الآن وفر الله جمعهم ووفقهم للقيام بأحكام الطريق . وقد ذكرت فى الفهرست وفى الفكر السامى تراجم

جلة منهم . وكانوا سرج هدى فى علوم القرآن والسنة والوقوف عند أوامرها ؛ وحاشاهم أن يتمذهبوا بطريق تؤسس على ما يوهم خلاف عظمة الاسلام والشرع الاسلامى أو يرضوا بذلك وهم من هم علماً وديناً وورعاً وذباً عن الاسلام وغيرة عليه . ومنهم من كان يذكر هذه الزوائد علناً ، ومنهم من انفصل عن الطريق لأجلها كسيدى الفاطمى وغيره رحمة الله عليه

أما كتاب « جواهر المعانى » الذى ألفه أحد العوام من أصحاب الشيخ التجانى ، فأخذ أكثره حتى الخطبة بلفظها من كتاب « المقصد الأحمدى » الذى ألفه قبل الشيخ التجانى سيدى محمد ابن الطيب القادرى فى مناقب سيدى أحمد بن عبد الله معن الأندلسى . والمقصد الأحمدي قد طبع فبان عوار جواهر المعانى حتى الشعر الذى قيل فى سيدى أحمد بن عبد الله أخذه بنفسه وجعله فى الشيخ التجانى ونقل الفصول بلفظها، بل كل ما وصف به سيدى أحمد بن عبد الله جعله وصفاً لشيخه ظاناً أن اتحاد الاسم اتحاد للوصف . وذلك ما يدلك على براءة الشيخ التجانى من كل ما تضمنه الكتاب المذكور

ومن أغلاط أدباء هذه الطائفة وغلوهم المفرط أنهم جعلوا قانوناً لطريقتهم ضمنوه مختصراً على لهجة مختصر الشيخ خليل المالكى نسقاً وأسلوباً ، وبينوا فيه الأحكام الخمسة من وجوب وحرمة وندب وكراهة وجواز كأنهم لم يسمعوا قوله تعالى (إن الحكم إلا لله)

ومن عجيب أمرهم أنهم جعلوا حكم الردة عن طريقهم أقسى وأهول من حكم الردة عن الاسلام

فإن من ارتد عن الاسلام تقبل توبته ولو تكررت : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا) الآية . أما من ارتد عن الطريق التجانى فلا تقبل توبته وليس له إلا الخلود فى النار والموت على سوء الخاتمة ، ويبقى عندهم ملحوظاً بتلك السمة ، ولا مطمع فى قبول توبته ، ولو أناب ورجع لطريقهم . ويظن بعض أنه لو كانت لهم سلطة متمكنة لقتلوه وما استتابوه

فعملهم هذا يتخيل منه أن لهم برنامجاً خاصا يستدرج طريقهم لتصير ديانة مستقلة عن الإسلام ... حكى لى أن محمد الأمين الشنقيطى لما ألف المختصر المذكور ظانا أنه عمل عملاً عظيماً جميداً — جاء به إلى الأستاذ العارف سيدى العربى الوساوى ساكن زرهو ، وهو من علماء هذه الطائفة الكبار ومقدميها الأخيار ؛ فلما اطلع عليه وبخه توبيخاً عنيفاً قائلاً : أتجعلون طريقتنا مسجد الضرار للاسلام ؟ السنة تجمعنا والبدعة تفرق بينى وبينكم ، أو ما هذا معناه . ولم يقدروا على إظهار هذا المختصر إلا بعد وفاة هذا السيد الجليل رحمه الله . وبعد موته وجد فى تركته فسرقه من سرقه ونسبه لنفسه وطبع ونشر فكان موت الأكابر زلة الأصاغر

لقد وقع مثل هذا فى الديانات تسلط عليها الجهلة فأفسدوها ظانين الاصلاح فكيف بالطرق ؟

وهذه صورة مصغرة ترينا كيف وقع فى الديانات حتى اختل نظامها وطمست أعلامها وهرمت بالقلب والابدال الذى أشار له القرآن ...

وإذا لم يتدارك هذه الطريقة علماؤها بمحق ما زيد فيها ، وإبطال كل ما خالف القرآن والسنة ونبذ كل تأويل وتضليل فانها تؤول للاضمحلال ، إذ الاسلام أفاق من سكرته ، ولم تعد أفكار أهله تقبل أدنى شىء يمس بجوهر أصول الكتاب والسنة أو يخالف العقل الصحيح

وتمسكوا أى تمسك بقاعدة أن الدين الصحيح لا أمت ولا عوج ؛ وهو ما بين دفتى المصحف والبخارى ومسلم وصحيح السنة من رواية العدول الثقات دون المغفلين الجاهلين ، ورموا خلفهم كل ما خالف ذلك غير ملتفتين لتأويل المؤولين وتضليل المرتزقة المضللين

وإنى على يقين أنه بانتشار التعليم الصحيح المؤسس على الأصول السابقة ، تنكمش تعاليم المخرفين وتظهر رداءة نفوذهم المزوّرة ، فتنكشف صبغة نفوذهم المدبّرة باشراق شعاع شمس الكتاب والسنة والعقل الصحيح ؛ فاجتهدوا فى تعليم أولادكم الدين القويم قبل أن يسبق إلى قلوبهم أى تعليم آخر سواه ؛ فهو يناضل عن حوزته لأن برهانه فى نفسه : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) . (إن الله متم نوره ولو كره الكافرون) وعليكم سلام الله ورحمته من مبطه وجامعه معتذراً بقصوره وكثرة شواغله

« الرباط » محمد بن الحسن الحجوى الثعالبى الجعفرى